الجزء الأول

موسى مصرى

✠ ✠ ✠

إنه لعمل لايمكن الاستخفاف به، أن ننكر نسبة إنسان إلى شعب يثنى عليه ويعده أعظم أبنائه، وخاصة إذا كان المتوفر على هذا العمل أحد أبناء هذا الشعب. وعلى كل فلن أدع لأى اعتبار أن يؤثر علىّ فأنحى الحقيقة جانباً، إيثاراً لمصلحة قومية مدّعاة. وبالإضافة إلى ذلك فإن توضيح الحقائق المجردة للمشكلة قد يعمق بصيرتنا داخل الموقف الذى تتعلق به هذه الحقائق.

وينتمى الإنسان **موسى**، محرر الشعب اليهودى، والذى أعطاه ديانته وشرائعه، إلى عصر موغل فى البعد، مما يجعلنا نتساءل أول مانتساءل: هل هذه الشخصية شخصية تاريخية أم أنها شخصية أسطورية؟ وإذا كان موسى قد عاش، فقد كان الزمن الذى احتواه هو القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد. وليس لدينا مايتحدث عن موسى إلا ماورد عنه فى التوراة وتراث اليهود المكتوب. ورغم أن القرار الذى يحسم هذه المسألة سينقضه اليقين التاريخى النهائى، إلا أن الغالبية العظمى من المؤرخين قد أعلنوا رأيهم بما يفيد أن موسى قد عاش فعلاً، وأن الخروج من مصر الذى قاده قد وقع فعلاً. وظل الاعتقاد السائد عن حق، أن التاريخ الأخير لشعب إسرائيل لايمكن فهمه إذا لم نصادق على أن موسى والخروج (من مصر) واقعتان تاريخيتان. ولقد صار العلم اليوم أكثر حذراً، ولكنه يعامل التراث بتسامح أكثر مما كان فى الأيام المبكرة للبحث العلمى.

وأول مايلفت النظر فى شخص موسى هو اسمه. وهو يكتب فى العبرية موشيه «Mosche». ولنا أن نتساءل من أين أتى الاسم؟ وماذا يعنى؟ وكما هو معروف أن قصة الاسم كما ترد فى الفصل الثانى من سفر الخروج تجيب على السؤال. ونعلم من القصة أن الأميرة المصرية التى أنقذت الطفل من ماء النيل أعطته اسمه: «فلأنى التقطته من الماء» يصير اسمه «موشيه» بمعنى لقيط الماء. وهذا هو التفسير اللغوى (للإسم). لكن الواضح أن هذا التفسير غير مناسب. ويقول أحد الكتّاب فى مجلة «Judisches Lexikon» (التى

أنشأها هيرلتز وكيرشنر سنة ١٩٣٠): «أن تفسير التوراة للإسم هو «الذى التُقط من الماء» تفسير شعبى لغوى، ولكن صيغة اسم الفاعل من الإسم (واسم موشيه لايعنى على الأكثر إلا «الذى يلتقط») لا تتفق مع هذا التفسير. ويمكن تأييد هذا الرأى بحجتين أخريين: الأولى بأنه من السخف أن ننسب إلى أميرة مصرية معرفة اللغة العبرية، والثانية بأنه فى الغالب أن الماء الذى انتشل منه الطفل لم يكن هو ماء النيل.

ومن ناحية أخرى، فقد اقترح كثير من الناس من زمن طويل أن يكون اسم موسى اسماً مشتقاً من اللغة المصرية، وبدلاً من أن أسرد كل أسماء المؤلفين الذين أعربوا عن هذا الرأى، سأقتبس فقرة من كتاب ظهر حديثاً للمؤرخ «بريستيد» هو كتاب «تاريخ مصر (History of Fgypt)، ويعد من الكتب التى يرجع إليها. يقول «بريستيد»:

«من المهم ملاحظة أن اسمه موسى هو اسم مصرى، وهو ليس إلا الكلمة المصرية «موسى Mose»، والتى تعنى «طفلاً»، وهى اختصار للاسم المكّون من شقين مثل «أمون موسى»، أى (طفل أمون)، أو «بتاح موسى»، أى «طفل بتاح». وهذه الأشكال بدورها هى اختصارات للشكل الكامل الذى يعنى أن «أمون قد أنجب طفلاً»، أو أن «بتاح قد أنجب طفلاً». والاسم المختصر "موسى" أى طفل، صار من وقت مبكر شكلاً مريحاً سهلاً للاسم المركب الكامل. وليس اسم «موسى» بمعنى «طفل»، اسما غير شائع فى الآثار المصرية، ولاشك أن والد موسى أطلق على ابنه اسماً يسبقه ويضاف إليه، وهو اسم أحد الآلهة المصرية مثل أمون أو بتاح. ولكن هذا الاسم الإلهى سقط تدريجياً مع الاستعمال، حتى اقتصر اسم الولد على اسم «موسى» «Mose». (أضيف الحرف الأخير S إلى الاسم فصار Moses عند ترجمة الاسم إلى اليونانية فى العهد القديم، ولكن الحرف غير موجود فى الترجمة العبرية حيث تكتبه Mosheh أى موشيه). وأنا أخذت هذه الفقره حرفياً من كتاب بريستيد، ومستعد تماما للإسهام فى تحمل مسئولية ما أوردته من تفاصيل، ويدهشنى مع ذلك أن «بريستيد» وهو يسرد أسماء لها صلة ببعضها البعض قد مرّ مروراً فى قائمة أسماء الملوك المصريين على الأسماء التى تتشابه فى مدلولاتها الدينية مثل «أح- موسى» (أحمس)، و«توت- موسى» (تحتمس)، و«رع- موسى» (رمسيس).

وكان المتوقع أن يستنتج واحد من المؤلفين الكثيرين الذين تبينوا أن اسم موسى هو اسم مصرى، أن من يحمل اسما مصريا كان مصرياً هو نفسه، أو أن يقول على الأقل

باحتمال ذلك. ونحن لانحس فى العصر الحديث بأى ارتباك عندما نستخلص استنتاجاً كهذا، مع أن الإنسان فى هذه الأيام يحمل اسمين وليس اسما واحداً، ومع أن تغيير الاسم أو اكتسابه فى ظروف جديدة شئ لايمكن استبعاده.

وهذه الإحالة من الإسم إلى الجنسية تكون أكثر رجحاناً فيما يتعلق بالعصور المبكرة والبدائية، وهى فعلاً قاطعة فى ذلك. ومع ذلك، وفى أغلب ظنى، فإنه لايوجد مؤرخ واحد قد خلص إلى هذه النتيجة فيما يتعلق بحالة موسى، ولاحتى واحداً من هؤلاء مثل بريستيد، الذين لهم الاستعداد على افتراض أن موسى «كان عالما بكل حكمة المصريين»[1].

ويمكن أن نخمن الأسباب التى منعتهم من التوصل إلى هذا الاستنتاج، فلربما كانت للكتاب المقدس عندهم رهبة عظيمة، ولربما استعظموا أن يتخيلوا أن الإنسان موسى يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى أنه عبرانى. وعلى أى حال فإن ما حدث كان كالآتى: أن الإقرار بأن اسم موسى هو اسم مصرى لم يكن عاملاً فى الحكم على أصل الإنسان موسى، وأن أحداً لم يستنتج شيئاً أكثر من ذلك من هذا الإقرار. فإن كان السؤال عن قومية هذا الإنسان العظيم شيئاً له أهميته، فإن من الواجب أن نرحب بأية مادة جديدة يمكن أن تفيد فى الإجابة عليه.

وهذا ما يحاوله بحثى الصغير، وما يسهم به فى تطبيق التحليل النفسى فى هذا المجال، ومن ثم فإن النتائج التى سأتوصل إليها هى نتائج تهم فقط أقلية من القراء الذين لهم دراية بالمنطق التحليلى، ولديهم الاستعداد لتذوق نتائج هذا التحليل. وإنى لآمل أن يكون لهذا البحث عندهم بعض المعنى.

ويتناول موضوع كتاب أوتو رانك Otto Rank الذى وضعه سنة ١٩٠٩، وقت أن كان مايزال تحت تأثير تعاليمى، والمعنون Der Mythus von der Geburt des Helden، والذى نشره بوحى منى[2]، واقعة «أن كل الشعوب المتحضرة الكبرى تقريبا قد نسجت فى وقت مبكر أساطير تدور حول، وتعظّم بالشعر، أبطالها وملوكها وأمراءها ومؤسسى دياناتها وأسرها المالكة وأمبراطورياتها ومدنها الأسطورية- وبالاختصار أبطالها القوميين، وخصّت تاريخ ميلادهم وسنواتهم المبكرة بسمات خيالية. وإن التشابه الذى يثير الدهشة،

١- The Dawn of Conscience, p. 334.

٢- وليس فى ذهنى التقليل من قيمة ماأسهم به رانك فى هذا الكتاب من أفكار تمت إليه وحده. (فرويد).

بل والتماثل الحرفى لهذه القصص - حتى لو كانت قصصاً لشعوب مختلفة ينعدم الارتباط بينها كلية، وأحياناً ما تكون متابعدة جداً عن بعضها البعض جغرافياً - أمر معروف جداً، وأدهش الكثير من الباحثين». وكما قال «رانك»، وتتبعاً لخطوط منهج «جالتون» أستطيع أن أقول أن هناك أسطورة تجمع فى نفسها أهم خصائص كل الأساطير، فهى أسطورة تتوسط كل الأساطير، أو «أسطورة متوسطة» مؤداها :

«أن البطل هو ابن والدين لهما مكانة من أعلى المكانات، وأنه كثيراً مايكون ابن ملك».

«وأن إنجابه اعترضته العوائق مثل الزهد أو العقم المؤقت، أو أن والديه كانا يجتمعان سراً بسبب وجود موانع، أو غير ذلك من العوائق الخارجية. وخلال حمل أمه فيه أو قبل ذلك يُحذر أحد المتنبئين الأب أو يتلقى الأب تحذيره من حلم مؤداه أن ميلاد الطفل ستكون فيه خطورة على سلامة الأب».

«ومن ثم فإن الأب (أو من يمثله) يأمر بقتل الطفل المولود حديثاً أو بتعريضه لخطر خارجى، وفى أغلب الحالات يوضع الطفل فى سله ويسلم أمره للأمواج».

«وحينئذ تنقذ الحيوانات الطفل، أو ينقذه الناس الفقراء، كالرعاة، ويرضع الطفل من أنثى أحد الحيوانات أو ترضعه امرأة ذات نشأة متواضعة».

«وعندما يبلغ الطفل يكتشف اسم والديه اللذين يمتأن إلى النبلاء، وذلك بعد أن يخوض مخاطر كثيرة وغريبة، ويحقق الانتقام من أبيه، ثم يعترف به شعبه فيحقق لنفسه الشهرة والعظمة».

وتعد أسطورة سارجون الأجادىSargon of Agade أبعد شخصية تاريخية تنطبق عليها أوصاف هذه الأسطورة المتوسطة. وترجع أسطورة مؤسس بابل إلى نحو سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد. ومن وجهة النظر التى تهمنا هنا قد يفيد أن ننقل الرواية كما يسوقها هو نفسه.

يقول سارجون :

«إننى سارجون الملك القوى، ملك أجاد. كانت أمى رقيقاً، أبى لم أعرفه، بينما كان شقيق والدى يسكن فى الجبال. وفى المدينة التى نشأت فيها فى أزوبيرانى Azupirani- وتقع على شواطئ الفرات- حملت فىَّ أمى الرقيق. حملتنى سراً. ووضعتنى فى سلة من البردى، وأغلقت فوهة السلة بالقار، وألقتنى إلى الماء. ولم يغرقنى النهر، ولكن حملنى أبى «أكى Akki» السقّاء الذى كان يسحب الماء، وربانى كابنه. وجعلنى «أكى»، ساحب الماء،

بستانيّه. وعندما كنت بستانياً وقعت عشتار[١] فى حبى وصرت ملكا، وحكمت كملك مدة خمس وأربعين سنة».

وأشهر الأسماء المعروفة فى السلسلة التى بدأت بسارجون الأجادى، هى أسماء موسى وقورش[٢] ورومولوس[٣]. ولكن رانك جعل إلى جوار هؤلاء عدداً آخر من الأبطال جمع أسماءهم من عالم الأسطورة أو الشعر، وتنطبق عليهم القصة فى كلّيتها أو فى أهم أجزائها، مثل أوديب[٤]. وكارنا وباريس[٥] وتيليفوس[٦] وبيرسيوس[٧] وهيراقل[٨]

١- عشتار Ishtar : إلاهة سامية كان الفينيقيون يعبدونها، وكانت صيدا مركزها. وتذكر التوراة أن الملك سليمان بنى لها هيكلا فى القدس، وتدل الآثار والنقوش الموجودة بكثرة فى فلسطين على أن ديانتها كانت منتشرة بوصفها إلاهة الخصب والتكاثر، كما تدل صورها على أنها مصرية الأصل، وذلك لأن الصور تقدمها حاملة فى يديها زهرة لوتس وقد زينت رأسها ضفيرتان طويلتان. وعبدت عشتار فى قبرص وصقلية وسردينيا وقرطاجنة، وتكاد تكون الإلاهة المصرية إيزيس والإلاهة هاتور، ثم ظهرت فى اليونان ولدى الرومان فى شكل أفروديتى وأرتميس وديانا وجونو. وكان الفينيقيون يقدمون لها الذبائح، ولها آثار رائعة فى دير القلعة بلبنان. (الحفنى)

٢- قورش : هو قورش الأكبر مؤسس الإمبراطورية الفارسية (نحو سنة ٥٥٨ إلى ٥٢٨ ق.م)، وكان قد خلع أستياج ملك ميديا وألحق الهزيمة بكريسوس ملك ليديا، واستولى على بابل، وصار سيد كل آسيا الشرقية، واستمرت الإمبراطورية التى أسسها لمدة قرنين من الزمان، وقتل وهو يحارب وخلفه ابنه قمبيز الثانى. (الحفنى)

٣- رومولوس : المؤسس الأسطورى لروما، والذى تستمد منه اسمها، وأول ملك يتبوأ عرشها. وتقول الأسطورة أنه حكمها من سنة ٧٥٣ إلى سنة ٧١٥ ق.م وكان يعشق القتال ويكره الأرستقراطية، وفى إحدى المرات قام بجولة تفتيشية على جنوده، وهبت عاصفة هوجاء، واختفى رومولوس وسطها، ولم يظهر بعد ذلك. (الحفنى)

٤- أوديب Oedipus هو وَلَدُ لايوس ملك طيبة وجوكاستا، وكان العرّاف قد حذّر لايوس أن ابنه سيقتله، ومن ثم أمر بأن يترك ابنه بعد ولادته على جبل سيثرون. ولكن الرعاة يعثرون عليه ويأخذونه إلى بلاط ملك كورنثه الذى يربيه، وعندما يكبر يذهب ليستعلم عن مستقبله من العرّاف الذى يقول له أنه سيقتل أباه، وحيث أنه يعرف أن أباه هو ملك كورنثه، فهو يهرب، ويعثر فى طريقة على لايوس، أبيه الحقيقى .. ويتعاركان لأمر ما، ويقتله. ويتولى كريون أمر طيبة بعد مقتل لايوس، ولكن أبا الهول يحاصر طيبة ويقتل كل من يسير إليها أو يخرج منها. ويعد كريون أى إنسان ينقذ طيبة من شر أبى الهول أن يتولى عرشها ويتزوج ملكتها جوكاستا .. ويقتل أوديب أبا الهول ويتولى عرش طيبة ويتزوج من أمه جوكاستا. وعندما يعلم الحقيقة من بعد يفقأ عينيه بنفسه ويترك طيبة، تقوده إبنته أنتيجون. (الحفنى)

٥- باريس Paris أو ألكسندر هو الابن الثانى لبريام وهيكوبا، وهو الذى اختطف هيلين المشهورة وتسبب فى حرب طروادة، وتقول الأسطورة أنه اختير ليقول من الأجمل من الإلهات الثلاثة هيرا أو أثينا أو أفروديت، فاختار أفروديت، وبذلك استجلب حقد هيرا وأثينا على مدينة طروادة. (الحفنى)

٦- تيليفوس Telephos أحد ملوك الإغريق، جرحه أخيل بحربته، ولكنه شفى بعمل لزقة من صدأ نفس الحربة. (الحفنى)

٧- بيرسيوس Perseus : بطل إغريقى إبن زيوس وديانا، قطع رأس ميدوزا وتزوج أندروميدا، وأصبح ملك تيرنثيا، وأسس ميسينا. (الحفنى)

٨- هيراقل Heracles : نصف إله أغريقى، إبن زيوس وألكيمين، ويشبه هيراقل اللاتينى، وكانت الإلاهة هيرا قد غضبت منه، فأرسلت إليه فى مهده حيتين لتقتلاه وتلتهمانه ولكنه وهو طفل خنقهما بين ذراعيه، وكبر وصار ذا قوة خارقة. (الحفنى)

وجيلجاميش[1] وأمفيون[2] وزيتوس[3] وآخرين.

ونحن نعرف مصدر ومغزى أمثال هذه الأساطير من كتاب «رانك»، ولن أشير إلا إلى النتائج التى خلُص إليها ببضع ملاحظات: أن البطل إنسان يقف وقفة رجولية ضد أبيه، ثم ينتصر عليه فى النهاية. والأسطورة موضع البحث تتابع هذا النضال إلى فجر حياة البطل، بأن تجعل ميلاده شيئاً لم يكن الأب يريده، ولكنه يُنقذ رغم نوايا أبيه الشريرة تجاهه. وتعريضه فى السلة هو رمز واضح يمثل عملية الميلاد، فالسلة هى الرحم، والنهر هو ماء الولادة. وفى عدد لايحصى من الأحلام تمثُّل العلاقة بين الطفل وأبويه بعملية جر الماء أو بالإنقاذ من الغرق فى الماء. وعندما تَلصِق مخيلة شعب من الشعوب هذه الأسطورة بشخصية مشهورة، فإنما لتشير إلى أن الشعب قد اعترف به بطلاً، وإلى أن حياته قد تطابقت مع الصورة النمطية للبطل. والمصدر الباطنى للأسطورة هو مايسمى «الرواية الأسرية the family romance» التى تدور حول استجابة الطفل للتغييرات فى علاقته الداخلية بوالديه، وعلى الأخص بوالده، حيث يسيطر الاحترام والتفخيم المبالغ فيه للأب على الطفل فى سنواته الأولى، ومن ثم يظهر الآباء دائماً فى الأحلام والقصص فى دور الملوك والملكات، ولكن بعد ذلك، وتحت تأثير التنافس وواقع الفشل، يبدأ التحرر من سيطرة الوالدين، ويبدأ الاتجاه إلى نقد الأب، وعلى ذلك تكون الأسرتان فى الأسطورة، النبيلة والمتواضعة، هما صورتان للوالدين نفسيهما كما يبدوان للطفل فى مراحل الحياة المتتابعة.

ولانبالغ إذا قلنا إن مانسوقه من ملحوظات يفسر بشكل تام التشابه فى أساطير ميلاد الأبطال والتكرار الكثير لهذه الصورة. ولكن الشئ المثير أن أسطورة ميلاد موسى وطريقة عرضها، تقفان بشكل منفرد، حتى لتعارض الأسطورة الأساطير الأخرى المشابهة فى نقطة جوهرية واحدة.

ولنبدأ بالأسرتين اللتين تلقى الأسطورة بمصير الطفل بينهما، ونحن نعرف أن التفسير

١- جيلجاميش Gilgamesh : ملك فارسى عظيم، وبطل ملحمة شهيرة من ملاحم الشرق القديمة.(الحفنى)

٢- أمفيون Amphion : ابن زيوس وأنتيوب، وهو شاعر وموسيقى. بنى حوائط طيبة، وكانت الأحجار تأتى من تلقاء نفسها لتقيم الحوائط بفعل سحر صوت الناى الذى كان يعزف عليه. (الحفنى)

٣- زيتوس Zethos : ملك أسطورى من ملوك طيبة الإغريقية، وهو ابن زيوس وأنتيوب، وهو مشهور بمساعدته لأمفيون أخيه على الانتقام من ديرسيه وبناء مدينة طيبة. (الحفنى)

التحليلى يصنع منهما أسرة واحدة، وأن التفريق بينهما مسألة دقيقة. والأسرة الأولى التى يولد فيها الطفل، طبقاً للأسطورة النمطية، أسرة نبيلة، وغالباً ما تكون أسرة ملكية، والأسرة الثانية التى ينشأ فيها الطفل أسرة متواضعة، من الأسر الدنيا، تتوافق فى ظروفها مع الظروف التى يحيل إليها التفسير. ولم يحدث أن شذّ هذا التفريق إلا فى قصة الملك «أوديب»، فالرضيع «أوديب» تلفظه أسرته الملكية لتنشئه أسرة ملكية أخرى. وليس من قبيل الصدفة أن توجد فى هذا المَثَل الوحيد فى الأسطورة نفسها ومضة من التشابه بين الأسرتين، فالتعارض الاجتماعى بين الأسرتين- ويقصد به كما نعرف، أن تبرز الطبيعة البطولية لرجل عظيم- يعطى لأسطورتنا وظيفة ثانية، حيث تحفل خصوصاً بالشخصيات التاريخية، ومن ثم تمد بطلنا بأسرة نبيلة ينشأ بها وتدفعه إلى مكانة اجتماعية أعلى. وهكذا نجد أن «سيروس» مجرد قائد فاتح غريب عن الميديين، ولكن الأسطورة تجعله حفيد ملكهم. ونفس الشئ يحدث فى أسطورة «روموليوس»، فلو كان رجلا كهذا قد عاش، فلابد أن يكون مغامراً مجهولا وغير معروف النسب، ولكن الأسطورة تجعله سليل ووريث بيت «ألبا لونجا» الملكى.

والأمر يختلف فى حالة موسى، فالأسرة الأولى التى ولدته، وهى أسرة عادة ماتكون فى الأسطورة أسرة مميّزة، هى هنا أسرة متواضعة جداً من اليهود اللاويين[1]، أما الأسرة الثانية التى ينشأ فيها الطفل البطل، وهى أسرة، كقاعدة عامة، متواضعة، يحل محلها هنا البيت الملكى المصرى، فالأميرة تنشئه كابنها. وهذا الاختلاف عن النمط التقليدى للأسطورة بدا لكثير من الباحثين كشئ غريب، لدرجة أن إدوارد مييز وآخرين غيره، قالوا بأن الشكل الأصلى للأسطورة كان مختلفاً، ففرعون حلم حلماً[2] تلقى فيه التحذير بأن ابن ابنته سيكون خطراً عليه وعلى مملكته، ولذلك كان من نتائجه أن الطفل أُسلم إلى مياه

١- اليهود اللاويون هم سلالة ليفى إبن النبى يعقوب (إسرائيل) من زوجته الأولى «ليا»، واحترفوا خدمة الهيكل، بينما احترف أولاد هارون الكهانة فى الديانة العبرية، وليس عامة اللاويين أكثر من خدم، ومحظور عليهم الاقتراب من المذبح أو ممارسة أى من طقوس الكهانة. وتقول التوراة أن موسى وهارون من اللاويين. (الحفنى)

٢- ذكرته أيضاً رواية فلافيوس يوسيفوس، وهو مؤرخ يهودى ولد فى أورشليم (٣٧ - ١٠٠م)، وشاهد خراب أورشليم على يد تيتوس، وبسرعة انضم إلى الفريق المنتصر، وعمل فى خدمة تيتوس ضد أهله من اليهود، وكافأة تيتوس لخيانته فأعطاه مرتباً ثابتاً والجنسية الرومانية، وتفرغ لكتابة التاريخ من وجهة نظر روما، ولم يذكر المسيح فى كتبه إلا مرتين، وقال عنه :«من يدعى المسيح». ومن كتبه «تاريخ الحرب اليهودية»، و «آثار اليهود». (الحفنى)

النيل بعد ميلاده مباشرة، ولكن الشعب اليهودى ينقذه ويربيه كابن من أبنائه. وبتعبير رانك فإن «الدوافع القوية»[1] قد غيّرت الأسطورة وجعلتها على الشكل الذى نعرفه بها اليوم.

ومع ذلك فإن المزيد من التفكير يقول لنا إنه لا يمكن أن توجد أسطورة أصلية لموسى، أسطورة لاتختلف عن أساطير الميلاد الأخرى، لأن الأسطورة هى إما من أصل مصرى، أو من أصل يهودى، وقد نستبعد الفرض الأول، فليس عند المصريين من الأسباب ما يجعلهم يعظّمون موسى، وهو ليس بطلاً عندهم، ومن ثم فلابد أن تكون الأسطورة قد نشأت بين الشعب اليهودى، أى أنها أسطورة ترتبط فى شكلها الأصلى بشخص زعيم الشعب اليهودى، ولكنها لاتتناسب إطلاقاً هذا الفرض، فما هى جدوى أسطورة تجعل بطل شعب من الشعوب رجلا أجنبياً؟

وأسطورة موسى، كما نعرفها اليوم، تتسكع للأسف وراء دوافعها السرية، فلو أن موسى لم يكن من أصل ملكى، لما كان من الممكن أن تخلق أسطورتنا منه بطلاً، ولو بقى كما هو يهوديا، فالأسطورة لم تفعل شيئاً لترفع من مكانته، ولا يبقى من كل الأسطورة إلا سمة صغيرة واحدة تظل لها فاعلية: التأكيد على أن الرضيع قد عاش برغم القوى الخارجية القوية التى كان من المفروض أن تحدث العكس. وتتكرر هذه السمة فى التاريخ المبكر ليسوع، حيث يقوم الملك هيرود بدور فرعون. ولذلك فيحق لنا **أن نفترض أن الذى قام بتعديل الأسطورة، فى وقت لاحق وبطريقة جافة، رأى أن من المناسب أن يزود بطله موسى بسمات معينة، هى السمات التقليدية للبطل، ولكنها لاتناسب موسى بحكم الظروف الخاصة.**

وبهذه النتيجة غير المرضية وغير المؤكدة كذلك، يبلغ بحثنا نهايته دون أن يسهم أى إسهام فى الإجابة على السؤال الذى يتساءل ما إذا كان موسى مصرياً، ثم أليست هناك طريقة أخرى وربما كانت أكثر نجاحاً فى دراسة الأسطورة نفسها؟

ولنعد إلى الأسرتين اللتين فى الأسطورة، وكما نعرف فإنهما متطابقتان بمقياس التفسير التحليلى، ولكنهما مختلفتان بالمقياس الأسطورى، فهما أسرتان إحداهما نبيلة والأخرى متواضعة. ولكن هناك مقياساً ثالثاً يطبّق فى حالة الشخصية التاريخية التى ترتبط بها أسطورة، وهو مقياس الواقع، فإحدى الأسرتين هى أسرته فى الواقع، وهى

١- ص ٨٠ من كتاب رانك. (فرويد)

الأسرة التى ولد ونشأ فيها الرجل العظيم. والأسرة الأخرى أسرة غير الواقع. إنها أسرة اخترعتها الأسطورة لتحقق بها أهدافها. وكقاعدة فإن الأسرة الواقعية تتوافق مع الأسرة المتواضعة، والأسرة النبيلة مع الأسرة المخترَعة. ولكن فى حالة موسى يبدو هناك شئ مختلف. وهنا تلقى وجهة النظر الجديدة بعض الضوء، فالأسرة الأولى التى يتعرض فيها الرضيع للخطر هى بكل مقاييس المقابلة الأسرة المخترَعة، والأسرة الثانية التى تتبنى البطل والتى ينشأ فيها هى أسرته الواقعية. فإذا كانت لنا الشجاعة بحيث نقبل هذا الاستنتاج لحقيقة عامة تخضع لها كذلك أسطورة موسى، فإننا سنرى طريقنا واضحاً. إن موسى مصرى[1]، ومن المحتمل أن يكون من أصل نبيل، وتجعله الأسطورة يهودياً، وهذه هى النتيجة التى نخلص إليها! وتعريضه للماء كان فى محله، فلكى تتحقق النتيجة الجديدة فإن النية التى تدفع إليها يجب أن تتغير، وتغييرها لايتم بدون عنف، وهكذا تصبح وسيلة التخلص من الطفل وسيلة لتخليصه.

واختلاف أسطورة موسى عن كل الأساطير الأخرى من نوعها يمكن أن نرجعه إلى سمة خاصة فى قصة حياة موسى. فبينما يرقى الطفل فى كل الحالات الأخرى فوق البدايات المتواضعة أثناء تقدمه فى الحياة، فإن الحياة البطولية للإنسان موسى بدأت بهبوطه من رفعته إلى مستوى أطفال شعب إسرائيل.

ولقد قمت بهذا البحث الصغير على أمل أن أفوز منه بحجة ثانية جديدة مدللاً بها على ما أسوقه من فكرة أن موسى كان مصريا. ولقد رأينا أن الحجة الأولى التى تناولت اسمه لم تكن حجة حاسمة. وعلينا أن نستعد للمناقشة الجديدة التى مدارها تحليل أسطورة التعريض، دون أن نبتعد كثيراً عن موضوعنا الأصلى. ومن المحتمل أن تكون المعارضة التى توجَه إلينا هى أن ظروف نشأة وتحوُل الأساطير هى ظروف غامضة لاتسمح بالتوصل إلى نتيجة كالتى توصلنا إليها آنفا، وأن كل الجهود لاستخلاص نواة الحقيقة التاريخية لابد أن تبوء بالفشل بالنظر إلى عدم الترابط، والمتناقضات التى تحيط

١- يقول ا. مبير Die Mosessagen und die Lewiten (Berlin 1905)
من المحتمل أن يكون اسم موسى هو اسم بنحاس Pinchas من أسرة كهنة سيلو Silo ... هو بلاشك اسم مصرى. ومع ذلك فإن هذا لايثبت أن هذه الأسرة كانت من أصل مصرى، ولكنه يثبت أنه كانت لها علاقات بمصر (ص ٦٥١)، ولنا أن نتساءل ماهو نوع هذه العلاقات التى يمكن أن نتخيلها. (فرويد).

بالشخص البطولى موسى، وللعلاقات التى لاتخطئ والتى تدل على وجود تشويه مقصود تراكم خلال قرون كثيرة. وأنا نفسى لا أشارك هذا الاتجاه السلبى، ولكنى لست فى موقف لأدحضه.

وإذا لم يكن هناك يقين خلاف هذا اليقين يمكن أن نتوصل إليه، فلماذا عَرَضتُ هذا البحث على جمهور أكبر؟ وإنى لآسف أنه حتى تبريرى ليس له إلا أن يُقصر نفسه على مجرد التلميحات. ومع ذلك فإنه إذا كانت الحجتان اللتان سقناهما قد شدّتنا إليهما، حتى لنحاول أن ننظر بجد إلى النتيجة المستخلصة، أو التى مؤداها أن موسى كان عظيماً من عظماء المصريين، فإن آفاقا رحبة ومهمة جداً ستنفتح أمامنا إذ ذاك، ويمكن أن نفهم إذن، بمعاونة بعض الفروض المعينة، الدوافع التى وجهت موسى فى مهمته غير العادية. ويرتبط بذلك بشكل وثيق أن نفهم الدافع المحتمل لسمات عديدة ولخواص التشريع والدين اللذين أعطاهما موسى للشعب اليهودى. إن هذا الدافع المحتمل يستثير أفكاراً تتعلق بأصل الديانة التوحيدية عموما، ولكن مثل هذه الاعتبارات الهامة لايمكن أن تقوم على احتمالات نفسية فقط، وحتى إذا وافقنا عليها باعتبار أنها احتمالات تاريخية، وأن موسى كان شخصية مصرية، فإننا سنكون بحاجة إلى حسم مالايقل عن نقطة أخرى، حتى نحمى الإمكانيات الأخرى الكثيرة التى تلوح، نحميها من أن يوجه إليها النقد بأنها من نتاج الخيال، وأنها تبعد كثيرا عن الواقع. وربما كان يكفى أن نسوق برهاناً موضوعياً يثبت وقوع الفترة التى جرت فيها حياة موسى، والتى وقع خلالها الخروج عن مصر، ولكن ذلك ليس متيسراً، ومن ثم فمن الأوفق أن نحجم عن استخلاص أية نتائج تستتبع الأخذ بما قلنا به من أن موسى كان مصريا.

✠ ✠ ✠